«التفسير قبل الزمخشري»

مقدمة

التَّفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ

التفسير: لغة:

التفسير في اللغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣] أي بياناً وتفصيلاً. وهو مأخوذ من الفسر، وهو: الإبانة والكشف.

قال الفيروزآبادي[١]:

«الفَسْرُ: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل كضرب ونصر».

وقال ابن منظور[٢]:

«الفَسْرُ: البيان، فَسَرَ الشيء يَفْسِرُه ـ بالكسر ـ ويَفْسُرُه ـ بالضم ـ فَسْراً، وفَسَّرَه: أبانه. والتفسير: مثله... والفَسْرُ: كشف المُغَطَّى. والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المُشْكِل».

وقال «أبو حيان»[٣]:

«...ويطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس: عريته لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري».

---

(١) القاموس المحيط «فسر».
(٢) اللسان: مادة «فسر».
(٣) البحر المحيط ١/١٣.

وعلى ذلك: فالمادة تدور حول معنيين[1]:

الكشف المادي المحسوس، والكشف المعنوي المعقول.

وقيل: إن أصل الكلمة من التُّفْسِرَة، وهي الدليل من الماء الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض، كما يكشف المفسّر عن شأن الآية وقصتها[2].

التفسير: اصطلاحاً:

عرفه السيوطي قائلاً[3]:

«هو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، وبيان محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، ونحو ذلك».

وعرّفه «أبو حيان» فقال[4]:

هو «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك...» وفيه قصور وغموض[5].

وتعريف «الزركشي» أوضح من التعريفين السابقين إذ يقول[6]:

«التفسير: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ـ ﷺ ـ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ».

وهناك تعريفات أخرى ـ غير ما ذكرنا[7] ـ وكلها تتفق «على أن علم التفسير علم

---

(١) التفسير: معالم حياته ـ منهجه اليوم ـ أمين الخولي ص ٥، والتفسير والمفسرون/ للذهبي ج ١/ ١٥.
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٩٤، وتفسير البغوي ١/ ١٨ ط المنار، واللسان: فسر.
(٣) الإتقان ٢/ ١٧٤.
(٤) البحر المحيط ١/ ١٠.
(٥) راجع: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير أبو شهبة ص ٤١.
(٦) البرهان ج ١/ ٣٣.
(٧) راجع مثلاً: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٤٠٦ط أولى، ومنهج الفرقان في علوم القرآن ج٢/ ٦، التفسير في قواعد التفسير / الكافياجي ص ٣، ١١ وغيرها.

يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد»[1].

التأويل: لغة:

أصله: «من الأَوْلِ، وهو الرجوع».

قال الفيروزآبادي[2]:

«آل إليه أَوْلاً وَمَآلاً: رجع، وعنه ارتد... وأوّل الكلام تأويلاً، وتأوله: دبره وقدره وفسره، والتأويل عبارة الرؤيا».

وقال ابن «منظور»[3]:

«الأَوْلُ: الرجوع، آلَ الشَّيءُ يَؤولُ أَوْلاً ومَآلاً: رجع، وَأَوَّلَ الشيءَ: رَجَعَهُ، وأُلْتُ عن الشيء: ارتددت، وفي الحديث: «من صام الدهر فلا صام ولا آل» أي لا رجع إلى خير... وأوّل الكلام وتأوّله: دبره وقدره، وأوله وتأوله: فسره».

وعليه:

فالتأويل: إرجاع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة، وهي السياسة، فكأن المؤوّل ساس الكلام وضعه في موضعه... قال الزمخشري[4]:

«آلَ الرعيَّة يؤولها إيَالَةً حَسَنَةً، وهو حسن الإيالة، وائتالها، وهو مُؤْتَالٌ لقومه مِقْتَالٌ عليهم، أي: سائس محتكم، قال زياد في خطبته: قد أُلْنا وإيل علينا، أي: سُسْنَا وسِسْنَا...».

وقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم على معان مختلفة:

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ... ﴾ [آل عمران: ٧]. بمعنى التفسير والتعيين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] بمعنى العاقبة والمصير.

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٧.

(٢) القاموس المحيط ٣/ ٣٣١.

(٣) اللسان / مادة «أول» ١/ ١٧١ وما بعدها.

(٤) أساس البلاغة ص ٢٥ ط الشعب.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ . . .﴾ [الأعراف: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ . . .﴾ [يونس: ٣٩] بمعنى وقوع المخبر به.

ومن آيات سورة يوسف[١] أريد بها: نفس مدلول الرؤيا.

ومن آيتي سورة الكهف[٢] بمعنى بيان حقيقة الأعمال التي عملها العبد الصالح، وليس تأويل الأقوال[٣].

التأويل اصطلاحاً:

التأويل عند السلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، وبذلك يكون التأويل والتفسير مترادفين، وهذا ما يعنيه «ابن جرير الطبري» في تفسيره حين يقول: «القول في تأويل قوله تعالى...» وكذا قوله «اختلف أهل التأويل في هذه الآية... فالتفسير والتأويل كلاهما بمعنى.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به.

وعليه:

فالتأويل هنا نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء كانت ماضية أو مستقبلة، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا في نظر «ابن تيمية» هو لغة القرآن التي نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني[٤].

أما التأويل عند المتأخرين من الأصوليين والكلاميين وغيرهم:

فهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف[٥].

قال في جمع الجوامع[٦]:

---

(١) الآيات: ٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠.
(٢) الآيتان: ٧٨، ٨٢.
(٣) راجع: التفسير والمفسرون ١/١٨، ١٩.
(٤) التفسير والمفسرون ١/١٩ (بتصرف وإيجاز).
(٥) راجع: التفسير والمفسرون ١/١٩.
(٦) ج ٢/٥٦، والتفسير والمفسرون ١/٢٠.

«التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حمل عليه دليل فصحيح، أو لما يظن دليلاً من الواقع ففاسد، أو لا لشيء فلعب لا تأويل».

«الْفَرْقُ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ»

اختلف علماء «التفسير» في بيان الفرق بين التفسير والتأويل. ولعل منشأ هذا الخلاف «هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهاب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب»[1].

ـ ومن العلماء من ذهب إلى أنهما بمعنى واحد... ومن هؤلاء: «أبو عبيد القاسم بن سلام» وطائفة معه[2].

ـ ومنهم من فرق بينهما:

يقول الراغب الأصفهاني[3]:

«التفسير أعم من التأويل. وأكثر ما يستعمل التفسير من الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا.

والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل أكثره يستعمل في الجمل. فالتفسير إمّا أن يستعمل في غريب الألفاظ «كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة»، أو في تبيين المراد وشرحه؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وإما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها؛ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عامًا، ومرة خاصًا، نحو «الكفر» المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصّة، و«الإيمان» المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ «وجد» المستعمل في الجدة والوجد والوجود».

---

(١) التفسير. معالم حياة ـ ص ٦.

(٢) الإتقان ٢/ ١٧٣، التفسير والمفسرون ١/ ٢١ والإسرائيليات والموضوعات ٤٣.

(٣) التفسير والمفسرون ١/ ٢١، نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن / السيد خليل ص ٢٩، نقلاً عن: مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣ آخر كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار.

وقال «أبو طالب الثعلبي»[1]:

«التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير الصراط بالطريق، والصيِّب بالمطر. والتأويل: تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأَوْل، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل: إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير: إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل؛ مثاله: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤] تفسيره: أنه من الرصد، يقال: رصدته: إذا رقبته، والمرصاد: مفعال منه. وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه».

وقال «البغوي»[2]:

«التأويل: هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط.

والتفسير: هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها».

وقيل: «التفسير: ما يتعلق بالرواية، والتأويل: ما يتعلق بالدراية»[3]؛ يقول الكافيجي[4]:

«... إن علم التفسير علم يبحث فيه عن أحوال كلام الله المجيد من حيث إنه يدل على المراد بحسب الطاقة البشرية، وينقسم إلى قسمين:

تفسير: وهو ما لا يدرك إلا بالنقل أو السماع، أو بمشاهدة النزول وأسبابه، فهو ما يتعلق بالرواية؛ ولهذا قيل: إن التفسير للصحابة.

وتأويل: وهو ما يمكن إدراكه بقواعد العربية، فهو ما يتعلق بالدراية، ولهذا قيل: إن التأويل للفقهاء، فالقول من الأَوْل بلا نقل أو سماع خطأ، وكذا القول من الثاني بمجرَّد التشهي، وأما استنباط المعاني على قانون اللغة فمما يعد فضلاً وكمالاً».

وقد رجح المرحوم الدكتور الذهبي هذا الرأي، وعلل ذلك بقوله[5]:

«وذلك لأن التفسير معناه: الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به

---

(١) الإتقان ٢/ ١٧٣.
(٢) تفسير البغوي ١/ ١٨.
(٣) الإتقان ٢/ ١٧٣.
(٤) التيسير في قواعد التفسير ص ٣، ١١.
(٥) التفسير والمفسرون ١/ ٢٣.

إلا إذا ورد عن رسول الله ـ ﷺ ـ أو عن بعض أصحابه، الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ـ ﷺ ـ ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك».

وهذا هو ما نميل إليه.

«حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى التَّفْسِيرِ»

نزل القرآن الكريم لغرضين أساسيين:

أولهما: ليكون معجزة، فلا يقدر البشر على أن يأتوا بمثله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، ولا بسورة من مثله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

ثانيهما: ليكون منهج حياة، ودستوراً للمسلمين، فيه صلاحهم وفلاحهم؛ إذ تكفل بكل حاجاتهم من أمور الدين والدنيا، عقائد، وأخلاق، وعبادات، ومعاملات... إلخ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. ففي اتباعه الهداية، وفي الإعراض عنه الشقاء والضنك؛ ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦].

وبه مخرج الأمة من أزماتها، ونجاتها من الفتن؛ يقول علي ـ كرم الله وجهه ـ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَتَكُونُ فِتَنٌ، فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟ قَالَ ـ ﷺ ـ: «كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ فَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَىٰ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ. مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ أَفْلَحَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ـ ولكي يكون معجزاً ويتأتى تحديه للبشر.

ـ ولكي يتأتى اتخاذه دستوراً ومنهج حياة.

ولكي يتدبر المؤمنون آياته[1].

ولكي يستطيع المسلمون العرب الانطلاق بالدعوة[2]؛ لكل هذا جاء القرآن عربيًا.

وكان القوم ـ «عند نزوله ـ سواء من هو حجة له: من المؤمنين الصادقين، ومن هو حجة عليه، من الكافرين الجاحدين يفهمونه ويحيطون بمعانيه إفراداً وتركيباً، فيتلقون دعوته، ويدركون مواعظه، ويعون تحديه بالإعجاز بين مذعنين، يقولون: آمنا به، ومعاندين يلحدون في آياته، ويمعنون في معارضته كيداً وَليًا بألسنتهم وطعناً في الدين.

«فما كان منهم مَنْ تَعَذَّر عليه فهمه، ولا مَنْ خَفِيَتْ عليه مقاصده ومعانيه، بل كان وضوح معانيه، ويسر فهمه، هو الأصل فيما قام حوله من صراع بين مؤمن يجد فيه شفاء نفسه، وانشراح صدره، وكافر ينقبض لقوارع آياته فلا يزال يدفعها بالإعراض والمعارضة، والدفاع والمقارعة، وكان ذلك هو الأصل أيضاً في تكون الأمة المحمدية، وتولد التاريخ الإسلامي»[3].

يقول «ابن خلدون»[4]:

«إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه».

وقد سبقه أبو عبيدة معمر بن المثنى حين قال[5]:

«إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين... فلم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وحيه، إلى النبي ـ ﷺ ـ أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص».

إلا أن هذا الإطلاق يعارضه قول عمر بن الخطاب للرسول ـ ﷺ ـ[6]:

---

(١) قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ...﴾ [ص: ٢٩].

(٢) قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ...﴾.

(٣) التفسير ورجاله / محمد الفاضل ابن عاشور ص ٧ ـ ٨.

(٤) المقدمة ص ٣٦٧ ط الأزهرية سنة ١٩٣٠.

(٥) مجاز القرآن ـ ط ثانية ـ دار الفكر.

(٦) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٢٨٤ ط الحلبي تحقيق أبو الفضل، وقال الصيرفي: ولست أعرف إسناد هذا الحديث، وإن صح فقد دل على أن النبي ﷺ قد عرف ألسنة العرب.

«يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تَأْتِينَا بِكَلاَمٍ مِنْ كَلاَمِ الْعَرَبِ وَمَا نَعْرِفُهُ وَلَنَحْنُ الْعَرَبُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «إِنَّ رَبِّي عَلَّمَنِي فَتَعَلَّمْتُ، وَأَدَّبَنِي فَتَأَدَّبْتُ».

كما يعارضه صريح القرآن؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

نعم، إن هناك ألفاظاً لم تستطع بعض القبائل العربية معرفتها، ربما لعدم استعمالهم لها، أو لاحتمال اللفظ عدة معانٍ، وكذا بعض آيات أشكل عليهم فهم معناها، وذلك كسؤالهم النبي ـ ﷺ ـ لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] فقالوا: وأينا لم يظلم؟ وفزعوا إلى النبي ـ ﷺ ـ فبيّن لهم أن المراد بالظلم الشرك؛ واستدلّ عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ولو صح ما ذهب إليه ابن خلدون وأبو عبيدة، لما كانت حاجة الصحابة إلى تفسير الرسول ـ ﷺ ـ لكن تفسير الرسول للقرآن قد ورد في الأحاديث الصحيحة، بياناً لمعنى لفظ، أو توضيحاً لمشكل، أو تأكيداً لحكم، أو تفصيلاً لمجمل، أو تخصيصاً لعامٍّ، أو تقييداً لمطلق... إلخ.

وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حراصاً على حفظ القرآن، وفهم معانيه، وفقه أحكامه.

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي:

حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ـ ﷺ ـ عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: «فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعاً».

وإذا كان العرب الخُلَّصُ الذين لم تعكر عربيتهم عجمة ـ يحتاجون إلى التفسير، فنحن أولى وأحوج، بل وأشد حاجة إلى تفسير القرآن الكريم؛ إذ صار البون بعيداً بين العرب والفصحى...

يقول السيوطي[1]:

«ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه

---

(١) الإتقان للسيوطي ٢/ ٣٣٠ والبرهان للزركشي ١/ ١٤.
(٢) الإتقان ٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد احتياجاً إلى التفسير».

والحاجة إلى التفسير «إنما هي حاجة عارضة نشأت من سببين:

السبب الأول: هو أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، وإنما كان نزوله وتبليغه في ظرف زمني متسع جِدًّا: قدره أكثر من عشرين عاماً، فكان ينزل منجماً على أجزاء مع فواصل زمنية متراخية بين تلك الأجزاء، وكان نزوله في تقدم بعض أجزائه وتأخر البعض الآخر، على ترتيب يختلف عن ترتيبه التعبدي؛ لأن ترتيب تاريخ النزول كان منظوراً فيه إلى مناسبة الظروف والوقائع، مناسبة ترجع إلى ركن من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وترتيب التلاوة أو الترتيب التعبدي، كان منظوراً فيه إلى تسلسل المعاني وتناسب أجزاء الكلام بعضها مع بعض... والترتيب الأول مؤقت زائل بزوال ملابساته من الوقائع والأزمنة والأمكنة.

أما ترتيب التلاوة التعبدي فباق؛ لأنه في ذات الكلام، يدركه كل واقف عليه وتالٍ له من الأجيال المتعاقبة، بينما الترتيب التاريخي لا يدركه إلا شاهد العيان لتلك الملابسات من الجيل الذي كان معاصراً لنزول القرآن... وكان انقراض تلك الملابسات الوقتية محوجاً إلى معرفتها معرفة نقلية تصوُّرية؛ ليتمكن الآتون من استعمال القرائن والأحوال، التي اهتدى بها إلى معاني التراكيب القرآنية سابقوهم.

وأما السبب الثاني: فهو أن دلالات القرآن الأصلية، التي هي واضحة بوضوح ما يقتضيه من الألفاظ والتراكيب ـ تتبعها معانٍ تكون دلالة التراكيب عليها محل إجمال أو محل إبهام؛ إذ يكون الترتيب صالحاً على الترديد لمعان متباينة، يتصور فيها معناه الأصلي، ولا يتبين المراد منها؛ كأن يقع التعبير عن ذاتٍ بإحدى صفاتها، أو يكنى عن حقيقة بإحدى خَوَاصِّهَا، أو أحد لوازمها... فينشأ عن ذلك إجمال يتطلب بياناً، أو إبهام يتطلب تعييناً... ولما كان الذين اتصلوا أولاً بتلك المجملات أو المبهمات أو المطلقات قد رجعوا إلى المبلِّغ ـ ﷺ ـ في طلب بيانها أو تعيينها أو تقييدها، فتلقوا عندما أفادهم، فاطلعوا بأن الذين أتوا بعدهم احتاجوا إلى معرفة تلك الأمور المأثورة عن النبي ـ ﷺ لتتضح لهم تلك المعاني كما اتضحت لمن قبلهم...»[1].

وَبِذَا تبين أن التفسير نشأ منذ بدء الوحي؛ إذ احتاج إليه الصحابة، ثم زادت حاجة

---

(١) التفسير ورجاله من ١٠ ـ ١٣.

التابعين إلى التفسير، ولا سيما ما رآه الصحابة وسمعوه من الرسول ـ ﷺ ـ ولم يتمكنوا هم من رؤيته ولا سماعه... ثم اشتدت حاجة تابعي التابعين.

وهكذا كلما بَعُدَ الناس عن عصر نزوله، زادَتِ الحاجةُ إلى التفسير بمقدار ما زاد من غموض[1].

فَهْمُ الصَّحَابَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

نزل القرآن عربيًّا على رسول عربي، وقوم عرب؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ...﴾ [الجمعة: ٢]، فكانوا أخبر بلغتهم، وفهموا القرآن حق فهمه، وقد يشكل عليهم فهم آية منه فيرجعون إلى القرآن نفسه، فقد يجدون فيه توضيحاً أو تفصيلاً؛ وإلا رجعوا إلى النبي ـ ﷺ ـ ليفسر لهم ما أشكل عليهم...

وكان الصحابة يجتهدون في فهم القرآن الكريم مستعينين على ذلك بـ[2]:

١ ـ معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

٢ ـ معرفة عادات العرب.

٣ ـ معرفة أحوال اليهود والنصارى في الجزيرة وقت نزول القرآن.

٤ ـ قوة الفهم وسعة الإدراك.

وبدهي أن يتفاوت الصحابة في توافر هذه الأدوات عندهم، وبالتالي في فهم القرآن الكريم، فلم يكونوا جميعاً في مرتبة واحدة، ومن هنا كان الاختلاف اليسير بينهم في تفسير القرآن الكريم.

ومن ذلك:

ـ ما روي من أن الصحابة فرحوا حين نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٥]؛ لظنهم أنها مجرد إخبار وبُشْرَىٰ بكمال الدين، ولكن عمر بَكَىٰ وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعراً نَعْيَ النبي ـ ﷺ ـ وقد كان مصيباً في ذلك؛ إذ لم يعش النبي ﷺ بعدها إلا أحداً وثمانين يوماً؛ كما روي[3].

ـ وفيه ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال[4]:

---

(١) راجع التفسير والمفسرون / للذهبي ١/ ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) راجع التفسير والمفسرون ١/ ٥٩ وما بعدها.

(٣) الموافقات للشاطبي ج ٣/ ٣٨٤، التفسير والمفسرون ١/ ٦١، ٦٢.

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/ ٥١٩، / باب التفسير.

«كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا، وإن لنا أبناء مثله؟!

فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١].

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره؛ إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟

فقلت: لا، فقال: ما تقول؟

قلت: هو أجَلُ رسولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ أعلَمَهُ اللَّهُ له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ فقال عمر: لا أعلَمُ منها إلا ما تقول».

ـ **وقال ابن عباس**[1]:

«كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]؟ حتَّىٰ أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُهَا، يقول: أنا ابتدأتها».

أَشْهَرُ مُفَسِّرِي الْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ

عد السيوطي عدداً من مفسّري القرآن من الصحابة؟ ذَكَرَ منهم:

الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبا موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهم.

أما الخلفاء الثلاثة الأول فالرواية عنهم في التفسير قليلة جِدًّا، وذلك بسبب تقدُّم وفاتهم، ولانشغالهم بمهام الخلافة[2].

١ ـ علي بن أبي طالب:

وأما علي ـ كرم الله وجهه ـ فهو أكثرهم تفسيراً للقرآن؛ وذلك لأنه لم يشغل بالخلافة، وإنما كان متفرغاً للعلم حتى نهاية عصر عثمان.

وكثرة مرافقته للرسول ـ ﷺ ـ وسكناه معه، وزواجه من ابنته فاطمة، إلى جانب ما

---

(١) الإتقان ٢/ ١١٣.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ٨٤، والتفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٦٤، ٦٥.

حباه الله من الفطرة السليمة... كل ذلك أورثه العلم الغزير، حتى قالت عائشة، رضي الله عنها[1]: «أَمَا إِنَّهُ لأَعْلَمُ النَّاسِ بِالسُّنَّةِ» في زمن كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ متوافرين.

وروى معمر، عن وهب بن عبد الله، عن أبي الطفيل، قال: «شهدت عليًا يخطب وهو يقول: سَلُونِي، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل».

وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من عليٍّ؟

قال: لا، والله لا أعلمه.

وقال ابن مسعود: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن»[2].

نموذج من تفسير علي ـ رضي الله عنه ـ للقرآن:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]: إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان عظماً، ازداد ذلك البياض، حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق، ازداد بذلك السواد، حتى يسود القلب كله، وايم الله، لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود[3].

٢ ـ عبد الله بن مسعود:

هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح، وقيل: «شمخ»... ينتهي نسبه إلى مضر، يكنى بأبي عبد الرحمن، وأمه: أم عبد بنت عبد ود، من هذيل، وكان يقال له: ابن أم عبد.

أسلم قديماً قبل عمر بن الخطاب، وكان سبب إسلامه: حين مَرَّ به رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو يرعى غنماً، فسألاه لبناً فقال: إني مؤتمنٌ، قال: فأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ عناقاً لم ينز عليها الفحل، فاعتقلها، ثم حلب وشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلص، فقلص، فقلت: علمني من هذا الدعاء، فقال: إنك غلام معلم... الحديث[4].

---

(١) الاستيعاب ٣/ ١١٠٤، أسد الغابة ٤/ ٢٩.

(٢) راجع الإتقان ٢/ ٣١٩.

(٣) تفسير البغوي ـ ط المنار ٤/ ٢٧٣.

(٤) البداية والنهاية ٧/ ١٦٩، أسد الغابة ٣/ ٢٥٦ ـ ٢٦٠.

كان عبد الله من أحفظ الصحابة لكتاب الله وأقرئهم له، وكان ـ ﷺ ـ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَقْرَأَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ يَوْماً: اقْرَأْ عَلَيَّ سُوَرَةَ النِّسَاءِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، يَقُولُ: فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] فَاضَتْ عَيْنَاهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ[1].

وكان ـ ﷺ ـ يقول:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْباً كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»[2] وكان ابن مسعود حريصاً على فهم القرآن الكريم، يروي الطبري وغيره عن ابن مسعود أنه قال:

«كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»، وعن مسروق قال[3]: قال عبد الله بن مسعود:

«والذي لا إله غيره مَا نَزَلَتْ آيةٌ من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل، لركبت إليه».

وطرق الرواية عن ابن مسعود متعدِّدة، وأصح هذه الطرق ما جاء من[4]:

١ ـ طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود.

٢ ـ طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود.

٣ ـ طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود... وهذه الطرق الثلاثة أخرج منها البخاري في «صحيحه».

وهناك طرق أخرى كـ:

ـ طريق السدي الكبير، عن مرة الهمذاني، عن ابن مسعود. أخرج منها الحاكم في «مستدركه» وابن جرير في «تفسيره» ـ كثيراً.

ـ طريق أبي روق، عن الضحاك، عن ابن مسعود. وهي طريق غير مرضيَّة، أخرج منها ابن جرير في «تفسيره» أيضاً، وهي منقطعة؛ لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود.

وكان لابن مسعود تلاميذ كثيرون في الكوفة، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ لما ولي

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٦٩.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/ ٧.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الفضائل / باب مناقب عبد الله بن مسعود.

(٤) التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٨٧، ٨٨.

عَمَّار بن ياسر على الكوفة، سير معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس الكوفيون إليه وتعلموا منه.

ويقول العلماء:

إن ابن مسعود هو الذي وضع الأساس لطريقة الاستدلال، وقد أثرت هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فكثر التفسير بالرأي والاجتهاد[1]. وسوف يأتي ذكر تلاميذه عند حديثنا عن تفسير التابعين.

٣ ـ أبي بن كعب:

هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، سيد القراء[2]. كنيته: أبو المنذر، أو أبو الطفيل.

شهد بيعة العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهدَ كلَّها مع رسول الله ـ ﷺ ـ.

وهو أحد المشهورين بحفظ القرآن من الصحابة، وبإقرائه، قال فيه عمر بن الخطاب «أُبَيٌّ أَقْرَؤُنَا»[3].

وهو أحد الذين تَلْمَذَ عليهم «ابن عباس»؛ يقول ابن عباس[4]:

«ما حدثني أحد قط حديثاً فاستفهمته، فلقد كنت آتي باب أبي بن كعب وهو نائم، فأقيل على بابه، ولو علم بمكاني لأحب أن يوقظ؛ لمكاني من رسول الله ـ ﷺ ـ ولكني أكره أن أمله».

كان أبي يكتب في مصحفه أشياء ليست من القرآن الكريم مما يعد شرحاً، أو تفسيراً، أو سبباً لنزول، أو مما نسخ، وكان يقول: لا أَدَعُ شيئاً سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ[5] فمن ذلك مثلاً: دعاء القنوت[6].

وكان من أعلم الصحابة بكتاب الله وذلك لعدة عوامل:

* أنه كان من كُتَّاب الوحي للرسول ـ ﷺ ـ.

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٢٠.
(٢) تهذيب التهذيب ١/ ١٨٧، غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٣١. أسد الغابة ١/ ٤٩ ـ ٥١.
(٣) رواه البخاري، وانظر طبقات القراء للذهبي ٦/ ٦٢٩ وكذا شهد له النبي ﷺ.
(٤) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٧١.
(٥) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٢٨.
(٦) راجع الإتقان ١/ ٦٦.

* أنه كان حبراً من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها.

وقد تعددت طرق الرواية عنه وأشهر هذه الطرق:

١ ـ طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيٍّ، وهي طريق صحيحة، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الحاكم منها في «مستدركه»، والإمام أحمد في «مسنده».

٢ ـ طريق وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيلٍ، عن الطُّفَيْل بن أبي بن كعب، عن أبيه، وهذه يخرج منها الإمام أحمد في «مسنده»، وهي على شرط الحسن[1].

وتلاميذ أبيّ كثيرون منهم: أبو العالية، وزيد بن أسلم، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهم. ويعد أبي بن كعب أستاذ مدرسة التفسير في المدينة.

٤ ـ عبد الله بن عباس:[2]

هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم... يلتقي مع الرسول ـ ﷺ ـ في الجد الأول (عبد المطلب)، فهو ابن عم رسول الله.

ولد إبان المقاطعة الاقتصادية التي فرضتها قريش على بني المطلب، أي: قبل الهجرة بثلاث سنوات.

لازم ابن عباس رسول الله ـ ﷺ ـ لكن الرسول توفي، ولابن عباس من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة.

وقد حظي ابن عباس بدعوة رسول الله له حين قال ـ ﷺ ـ: «اللَّهُمَّ، عَلِّمْهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»، وفي رواية: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ».

واستجيبت دعوة الرسول ـ ﷺ ـ فكان عبد الله بن عباس «ترجمان القرآن»؛ يقول ابن مسعود:

«نعم ترجمان القرآن ابن عباس»، وذلك لبراعته في التفسير؛ كما لقب بالحبر، لغزارة علمه، وبالبحر كذلك.

وإذا كان ابن عباس قد فاته طول الصحبة للرسول ـ ﷺ ـ فقد استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يسألهم، ويتعرَّف أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك.

---

(١) راجع التفسير والمفسرون ١/ ٩٢، ٩٣.

(٢) بعض الكتب التي تترجم للمفسرين من الصحابة تقدم ابن عباس على سائر الصحابة لتفوقه في هذا العلم، وبعضها ترجمته بعد الثلاثة السابقين لتقدمهم في السن عليه وحداثته بينهم.

يقول ابن عباس:[1]

«لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ـ ﷺ ـ اللتين قال الله فيهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ . . .﴾ [التحريم: ٤]، لم أزل أتلطف له حتى عرفتُ أنهما حفصة وعائشة».

ويقول:

«وجدت عامة حديث رسول الله ـ ﷺ ـ عند الأنصار، فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائماً، لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تَسْفِي على وجهي الريح، حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف».

لقد أخذ ابن عباس العلم عن رسول الله ـ ﷺ ـ أولاً؛ فكان الرسول يعلمه ويربيه؛ قال له يوماً:

«يا غُلاَمُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: ٱحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، ٱحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَٱسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا ٱسْتَعَنْتَ فَٱسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَٱعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ ٱجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنِ ٱجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَم يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

وفي خلافة عمر كان لابن عباس تقدير خاصٌ عنده، فكان يدنيه من مجلسه رغم حداثة سنة ـ كما ذكرنا.

وقد أفاد ابن عباس من هؤلاء الذين يعدون بمثابة شيوخه: عمر بن الخطاب، أبي بن كعب، علي بن أبي طالب، زيد بن ثابت.

روى عبد الرزَّاق عن معمر قال[2]:

«عامة علم ابن عباس من ثلاثة: عمر، وعلي، وأبي بن كعب».

وذكر ابن الأثير الجزريُّ في ترجمة ابن عباس أنه[3] «حفظ المحكم في زمن النبيِّ ﷺ، ثم عرض القرآن على أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وقيل: إنه قرأ على علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ١/ ٢٢.
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٤١.
(٣) طبقات القراء ٤٢٥.

لقد أوتي ابن عباس علماً غزيراً جعله أبرز المفسرين وأتمهم اضطلاعاً بالتفسير حتى إنه «لم يبق عند منتصف القرن الأول من الهجرة من بين الصحابة وغيرهم إلا مذعن لابن عباس، مسلِّم له مقدرته الموفقة، وموهبته العجيبة، وعلمه الواسع في تفسير القرآن»[1].

لقد امتلك ابن عباس أدوات المفسِّر؛ فكان عالماً بأسرار العربية يحفظ الكثير من الشعر القديم، ويحثُّ الناس على النظر فيه قائلاً[2]:

«إذا تعاجم شيء من القرآن، فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي».

وهو القائل[3]:

«الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه».

وقد ذكر السيوطي بسنده حواراً دار بين نافع بن الأزرق وابن عباس، فقال[4]:

بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقه من كلام العرب؛ فإن الله تعالىٰ إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع:

أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المعارج: ٣٧].

قال: العزون: حَلَق الرفاق.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعتَ عَبِيدَ بن الأبرص، وهو يقول: [من الوافر]

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا

قال: أخبرني عن قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

قال: الوسيلة: الحاجة.

---

(١) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٦.
(٢) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٧.
(٣) الإتقان ١/ ١١٩، غاية النهاية في طبقات القراء ٤٢٦.
(٤) الإتقان ١/ ١٢٠.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عنترة وهو يقول: [من الكامل]

إنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ إِنْ يَأْخُذُوكِ تَكَحَّلِي وَتَخَضَّبِي

إلى آخر المسائل وأجوبتها[1].

وهي إن دلت فإنما تدل على سعة علمه بلغة العرب، وقوة ذاكرته؛ مما جعله إمام التفسير في عهد الصحابة، ومرجع المفسِّرين في الأعصر التالية لعصره، وهو إمام مدرسة التفسير في مكة، وأول من ابتدع الطريقة اللغوية في تفسير القرآن.

طرق الرواية عن ابن عباس:

تعددت طرق الرواية عن ابن عباس، واختلفت تلك الطرق... وأشهر هذه الطرق وأصحُّها[2]:

١ ـ طريق الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، وتعد هذه الطريق من السلاسل الذهبية، وقد أخرج منها ابن جرير الطبري، وعبد الرزّاق في «تفسيريهما».

٢ ـ طريق سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح ـ وعن عكرمة أحياناً ـ عن ابن عباس، وقد أخرج منها عبد الرزاق في «تفسيره».

٣ ـ طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس... وقالوا:

إن هذه أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ: «إن بمصر صحيفةً في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً».

وقال الحافظ ابن حجر:

«وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في «صحيحه» فيما يعلقه عن ابن عباس».

٤ ـ طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

---

(١) راجعها في الإتقان ١/ ١٢٠ وما بعدها.

(٢) راجع: الإتقان ٢/١٨٨، التفسير والمفسرون ١/ ٧٧، ٨٨، حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٨٢.

وهناك طرق أخرى تلي هذه الطرق. . . [1].

وكان لابن عباس مدرسة في التفسير بمكة، فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى.

يقول الإمام ابن تيمية:

«أما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس؛ كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس؛ كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. . .»[2].

قِيمَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ الصَّحَابَةِ

بعض المحدّثين يعطي التفسير المأثور عن الصحابي حكم المرفوع، ومن هؤلاء الإمام الحاكم في «مستدركه»؛ إذ يقول[3]:

«ليعلم طالب الحديث: أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل ـ عند الشيخين ـ حديث مسند».

ولكن قيد «ابن الصلاح، والنووي» وغيرهما هذا الإطلاق بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأي فيه.

يقول ابن الصلاح[4]:

«ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند؛ فإنما ذلك في تفسير يتعلّق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ـ ﷺ ـ ولا مدخل للرأي فيه؛ كقول جابر ـ رضي الله عنه ـ: كانت اليهود تقول: من أتى امرأة من دبرها في قبلها، جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ. . .﴾ الآية [البقرة: ٢٢٣] فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى الرسول ـ ﷺ ـ فمعدودة في الموقوفات».

وذكروا أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع، إذا لم يكن للرأي فيه مجال، وأما ما يكون للرأي فيه مجال، فله حكم الموقوف.

---

(١) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ١٤٦ وما بعدها.
(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٥.
(٣) راجع: تدريب الراوي ص ٦٤، التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٩٤.
(٤) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٤.

وما حكم عليه بالوقف:

قال بعض العلماء: لا يجب الأخذ به؛ لأنه مجتهد فيه، وقد يصيب وقد يخطىء.

وقال بعضهم: يجب الأخذ به؛ لأنه: إما سمعه من الرسول، وإما فسره برأيه، وهم أدرى الناس بكتاب الله، وهم أهل اللسان، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال، ولا سيما ما ورد عن الأئمة الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم[1].

يقول الزركشي[2]:

«اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبي ﷺ، أو الصحابة، أو رُءُوس التابعين، فالأول: يبحث فيه عن صحة السند، والثاني: ينظر فيه تفسير الصحابي: فإن فسره من حيث اللغة، فهم أهل اللسان؛ فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن، فلا شك فيه...».

ويقول الحافظ ابن كثير[3]:

«... وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التامّ والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم؛ كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمّة المهديِّين، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم».

مَدْرَسَةُ مَكَّةَ
تَلاَمِيذُ ابْنِ عَبَّاسٍ

١ ـ سعيد بن جبير:

هو[4]: سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، مولى بني والبة، يكنى بأبي محمد[5]، أو بأبي عبد الله[6]. كان حبشي الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال[7].

---

(١) التفسير والمفسرون ص ٩٥ (بتصرف).
(٢) البرهان ٢/ ١٨٣.
(٣) مقدمة تفسير ابن كثير / الجزء الأول.
(٤) ترجمته في: طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٦، تقريب التهذيب ١/ ٢٩٢، وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤، تهذيب التهذيب ٤/ ١١، البداية والنهاية ٩/ ١٠٣، الأعلام ٣/ ١٤٥.
(٥) (٦) طبقات ابن سعد، والبداية والنهاية وغيرهما.
(٧) التفسير والمفسرون ١/ ١٠٤.

هو أحد كبار التابعين، وإمام من أئمة الإسلام في التفسير، وكثرة العمل الصالح.

كان في أول أمره كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم لأبي بردة الأشعري، ثم تفرغ للعلم حتى صار إماماً علماً[١].

أخذ العلم عن ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن مغفَّل المزني، وغيرهم. وتخرَّج في مدرسة ابن عباس[٢].

وكان ابن عباس يثق بعلمه، ويحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟! يعني: سعيد بن جبير[٣].

وكان يحب أن يسمع منه، قال له مرة: حَدِّثْ، فقال: أُحَدِّثُ وأنت هنا؟! فقال: أليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد فإن أصبتَ فذاك، وإن أخطأتَ علمتُكَ[٤].

مكانته في التفسير: كان ـ رضي الله عنه ـ من أعلم التابعين بالقراءات؛ يقول إسماعيل بن عبد الملك[٥]: «كان سعيد بن جبير يَؤُمُّنَا في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبداً».

وساعدته معرفته بالقراءات على معرفة معاني القرآن وأسراره، ومع ذلك كان يتورَّع من القول في التفسير برأيه.

يروي ابن خلكان[٦]: «أن رجلاً سأل سعيداً أن يكتب له تفسير القرآن، فغضب، وقال: لأَنْ يسقط شِقِّي أحبُّ إليَّ من ذلك».

وقد شهد له التابعون بتفوُّقه في العلم، ولا سيما التفسير، قال قتادة[٧]: «وكان أعلم الناس أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام».

وقال سفيان الثوري[٨]: «خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد بن جَبْر،

---

(١) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.
(٢) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.
(٣) التفسير والمفسرون ١/ ١٠٥.
(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٧، ووفيات الأعيان ١/ ٢٠٤.
(٥) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤.
(٦) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٧) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.
(٨) الإسرائيليات والموضوعات ص ٩٥.

وعكرمة، والضحاك». وقال خُصَيْف[1]: «كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيِّب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جَبْر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جُبَيْر».

نموذج من تفسيره: قال سعيد بن جبير: السبع المثاني هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، قال: وسميت بذلك؛ لأنها بينت فيها الفرائض والحدود[2].

قتله:

قتل ـ رضي الله عنه ـ سنة أربع وتسعين من الهجرة، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي صَبْراً، وذلك: أن سعيد بن جبير خرج على الخليفة مع ابن الأشعث، فلما قتل ابن الأشعث، وانهزم أصحابه من «دير الجماجم»، هرب سعيد، فلحق بمكة، وكان واليها خالد بن عبد الله القَسْرِيّ، فأخذه وبعث به إلى الحَجَّاج.

فقال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير.

قال: بل أنت شقي بن كسير. قال: بل أمي كانت أعلم باسمي منك.

قال: شقيت أنت، وشقيت أمك. قال: الغيب يعلمه غيرك.

قال: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظَّىٰ. قال: لو علمت أن ذلك بيدك، لاتخذتك إلٰهاً.

قال: فما قولك في محمد؟. قال: نبي الرحمة وإمام الهدى.

قال: فما قولك في علي؟ أهو في الجنة أو هو في النار؟. قال: لو دخلتها وعرفتُ مَنْ فيها عرفْتُ أهلها.

قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل.

قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقهم.

قال: وأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين، والطين تأكله النار؟!

قال: فما بالنا نضحك؟ قال: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فجمعه بين يديه، فقال سعيد: إن كنتَ جمعتَ هذا لتتقي به مِنْ فَزَعِ يوم القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٣٣، ٣٤.

أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا، ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود، ونفخ بالناي ـ بكى سعيد، فقال: ما يبكيك أهو اللعب؟ قال سعيد: هو الحزن، أما النفخ فذكرني يوماً عظيماً، يوم النفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاء تبعث معها يوم القيامة.

قال الحجاج: ويلك يا سعيد!! قال: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

قال الحجاج: اختر يا سعيد أيَّ قتلة أقتلك.

قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عُذْرَ.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج ضَحِكَ، فأخبر الحجاج بذلك فرده، وقال: ما أَضْحَكَكَ؟ قال: عجبت من جرأتك على الله، وحِلْمِ الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط، وقال: اقتلوه. فقال سعيد: وجهتُ وَجْهِيَ للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين.

قال: وجهوا به لغير القبلة. قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله.

قال: كبوه لوجهه. قال سعيد: منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه. قال سعيد: أما إني أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة، ثم دَعَا سعيد فقال: اللهم لا تسلِّطْهُ علَىٰ أحدٍ يقتله بعدي.

وكان الحجاج إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامِعِ ثوبه، ويقول: يا عَدُوَّ الله، فيم قتلتني؟!

فيقول الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير؟! ما لي ولسعيد بن جبير؟![1].

ذكر عن الإمام أحمد أنه قال[2]: قتل سعيد بن جبير، وما على وجه الأرض أَحَدٌ إلا وهو محتاج ـ أو قال: مفتقر ـ إلى علمه.

---

(١) انظر وفيات الأعيان ١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦، تذكرة الحفاظ ٧١ ـ ٧٣، البداية والنهاية ٩/ ١٠١ ـ ١٠٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٦٦، وفيات الأعيان ١/ ٢٠٦، الأعلام ٣/ ١٤٥.

٢ ـ مجاهد بن جَبْر:

هو: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج القرشي، المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي. ولد سنة ٢١هـ في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ١٠٣هـ[١].

أحد أئمة التابعين والمفسرين، وأحد أعلام القراء، ومن خاصَّة أصحاب ابن عباس، اشتهر بقوة حافظته، حتى قال ابن عمر وهو آخذ بركابه:

«وددت أن ابني سالماً وغلامي نافعاً يحفظان حفظك»[٢].

كان مجاهد شغوفاً بالعلم وخاصَّة التفسير. روى الفضل بن ميمون عن مجاهد، قال[٣]: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة.

ويقول أيضاً[٤]: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت؟

ولا تعارض بين الروايتين، فالأولى لتمام الضبط والتجويد، والثانية للعلم والتفسير.

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم: عن ابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمرو، وأبي سعيد، ورافع بن خَدِيج... وروى عنه خلق من التابعين[٥].

مكانته في التفسير: كان مجاهد أقل أصحاب ابن عباس روايةً عنه في التفسير، وكان أوثقهم.

قال سفيان الثوري[٦]: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد، فَحَسْبُكَ به».

وقال ابن تيمية[٧]: «ولذا يعتمد على تفسيره الشافعيُّ والبخاريُّ وغيرهما من أهل العلم» غير أن بعض العلماء كان لا يأخذ بتفسيره؛ يقول أبو بكر بن عياش: قلت للأعمش، ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو: ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟

قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب[٨].

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٤٦، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٢، البداية والنهاية ٩/ ٢٣٢.
(٢)، (٣) ميزان الاعتدال ٣/ ٩.
(٤) تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٢.
(٥) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٢.
(٦) تفسير الطبري ١/ ٣٠.
(٧) مقدمة في أصول التفسير ص ٧ لابن تيمية.
(٨) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٦، ميزان الاعتدال ٣/ ٣٣٩.

لكن هذا لا يقدح في صدقه وعدالته، فقد «أجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج به؛ وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة».

ثم إن سؤال أهل الكتاب أمر مباح ـ فيما لا يتعلق بحكم تشريعي ـ أباحه الرسول ﷺ[1].

كان مجاهد ـ رضي الله عنه ـ يعطي عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيداً، فإذا ما مَرَّ بنص قرآني من هذا القبيل، وجدناه ينزله بكل صراحه ووضوح على التشبيه والتمثيل، وتلك الخطة كانت فيما بعد مَبْدَأً معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة في تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص»[2].

نموذج من تفسير مجاهد: روى ابن كثير أن مجاهداً قال في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: أما الظاهرة: فالإسلام والقرآن والرسول والرزق، وأما الباطنة: فما ستر من العيوب والذنوب[3].

وقال في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] قال: من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى، فهو من الظالمين[4].

٣ ـ عكرمة:

هو: عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى عبد الله بن عباس، يكنى بأبي عبد الله، أصله من البربر بالمغرب[5].

سمع من مولاه ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعمرو بن العاص، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم[6].

تَلْمَذَ عَلَىٰ يَدَيْ عبد الله بن عباس، وكان ابن عباس لا يألو جهداً في تثقيفه وتعليمه، بل إنه كان يقسو عليه حتى يعلمه؛ روى ابن أبي شيبة عن عكرمة قال[7]: «كان ابن عباس يجعل في رجلي الكَبْلَ يعلمني القرآن والسنة».

---

(١) يقول ـ ﷺ ـ: بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

(٢) التفسير والمفسرون ١/١٠٨.

(٣)، (٤) البداية والنهاية ٩/٢٣٤.

(٥) طبقات ابن سعد ٥/٢٨٧، وفيات الأعيان ١/٣١٩، البداية والنهاية ٩/٢٥٤، الأعلام ٥/٤٣.

(٦) طبقات ابن سعد ٥/٢٨٧.

(٧) البداية والنهاية ٩/٢٥٥، والكَبْل: القيد.

وروى البخاري في صحيحه، عن عكرمة؛ أن ابن عباس قال له[1]: «حَدِّثِ الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرات، ولا تملَّ الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم، فتقص عليهم، فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه؛ فإني عهدت رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه لا يفعلون ذلك».

لقد اهتم ابن عباس بتلميذه هذا اهتماماً كبيراً، وكأنه كان يَعُدُّهُ؛ ليكون خليفته في تفسير القرآن، وكان يكافئه إذا ما أحسن فهم آية أشكَلَتْ على ابن عباس.

روى داود بن أبي هند عن عكرمة قال:

قرأ ابن عباس هذه الآية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] قال ابن عباس: لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟ قال: فما زلت أبين له حتى عرف أنهم نَجَوْا، فكساني حلة[2].

قال شهر بن حوشب: «عكرمة حبر هذه الأمة»[3].

وقد شهد له الأئمة الأعلام بالثقة والعدالة:

قال المروزي: قلت لأحمد: يحتج بحديث عكرمة؟ فقال: نعم، يحتجُّ به[4].

وقال ابن معين: إذا رأيتَ إنساناً يقع في عكرمة وفي حَمَّاد بن سلمة، فاتهمه على الإسلام[5].

وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتجُّ بعكرمة[6].

وقد أخرج له: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

علمه ومكانته في التفسير: كان عكرمة على درجة كبيرة من العلم، فهو من أعلم الناس بالسير والمغازي.

قال سفيان، عن عمرو، قال[7]: كنت إذا سمعت عكرمة يحدِّث عن المغازي كأنه مُشْرِفٌ عليهم ينظر كيف يصفون ويقتتلون.

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٩٣.
(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٢٨٨.
(٣) ميزان الاعتدال ٣/ ٩٣، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٤) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٥) معجم الأدباء ١٢/ ١٨٩.
(٦) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٧) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٥، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

وهو من علماء زمانه بالفقه والقرآن.

أما التفسير: فقد شهد له الأئمة بذلك؛ يقول الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة[1].

وقال حبيب بن أبي ثابت: اجتمع عندي خمسة: طاوس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء؛ فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفد ما عندهما، جعل يقول:

أنزلت آية كذا في كذا، وأنزلت آية كذا في كذا[2].

نموذج من تفسير عكرمة: قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ **الحديد:** ١٤] أي: بالشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالتوبة، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي: التسويف ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الموتُ، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان[3].

وتوفي عكرمة ـ رضي الله عنه ـ بالمدينة سنة سبع ومائة للهجرة، وقيل: سنة أربع ومائة[4].

٤ ـ طاوس:

هو: طاوس بن كيسان الخولاني، أبو عبد الرحمن.

أول طبقة أهل اليمن من التابعين، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن[5].

أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم، وروايته عن ابن عباس أكثر، وأخذه عنه في التفسير أكثر من غيره، ولهذا عُدّ من تلاميذ ابن عباس، وجاء ذكره في مدرسته بمكة[6].

روى عنه خلق من التابعين؛ منهم: مجاهد، وعطاء، وعمرو بن دينار، وغيرهم[7]. شهد له ابن عباس بالورع والتقوى؛ فقال: «إني لأظن طاوساً من أهل الجنة»[8]. وطاوس

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٥.
(٢) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٩.
(٤) تهذيب التهذيب ٧/ ٢٦٣ ـ ٢٧٣، تذكرة الحفاظ ١/ ٩٠، البداية والنهاية ١/ ٢٥٣.
(٥) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٤.
(٦) التفسير والمفسرون ١/ ١١٤.
(٧) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٥.
(٨) تهذيب التهذيب ٥/ ٩.

ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة.

كان طاوس ـ رضي الله عنه ـ جريئاً في الحق، لا يخشىٰ فيه لومة لائم، روى الزهري[1]: أن سليمان رأى رجلاً يطوف بالبيت، له جمالٌ وكمالٌ، فقال: من هذا يا زهريُّ؟

فقلت: هذا طاوس، وقد أدرك عدة من الصحابة، فأرسل إليه سليمان، فأتاه، فقال: لو ما حدثتنا؟! فقال:

حدثني أبو موسى قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إِنَّ أَهْوَنَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مَنْ وَلِيَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً، فَلَمْ يَعْدِلْ فِيهِمْ»؛ فتغير وجه سليمان، فأطرق طويلاً، ثم رفع رأسه إليه، فقال: لو ما حدثتنا؟! فقال: حَدَّثني رجلٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ ـ قال ابن شهاب: ظننتُ أنه أراد عليًّا ـ قال: دعاني رسول الله ـ ﷺ ـ إِلَىٰ طعام في مجلسٍ من مجالسِ قُرَيْشٍ، ثم قال: «إِنَّ لَكُمْ عَلَىٰ قُرَيْشٍ حَقًّا، وَلَهُمْ عَلَىٰ النَّاسِ حَقٌّ، مَا إِذَا اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا، وَإِذَا حَكَمُوا عَدَلُوا، وَإِذَا ائْتُمِنُوا أَدَّوْا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً»؛ قال: فتغير وجه سليمان، وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه، وقال: لو ما حدثتنا؟! فقال: حدَّثني ابن عباس أن آخر آية نزلَتْ من كتاب الله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

علمه:

بلغ طاوس من العلم مبلغاً عظيماً، وكان واثقاً من علمه هذا.

أنكر عليه سعيد بن جبير قوله عن ابن عباس: إن الخلع طلاقٌ، فلقيه مرة فقال له: «لقد قَرَأْتُ القرآن قبل أن تُولَدَ، ولقد سمعته وأَنْتَ إذ ذاك هَمُّكَ لقم الثريد».

وقال قيس بن سعد: «كان طاوس فينا مِثْلَ ابن سيرين فيكم».

والتفسير المأثور عنه قليل جدًّا، ومعظمه يرويه عن ابن عباس، ولقلة التفسير المأثور عنه، وطُولِ باعه في الفقه، قالوا عنه: إنه فقيه لا مفسِّر، وعدَّه علماء الفقه فقيهاً.

نموذج من تفسيره: قال في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ . . .﴾ الآية [الروم: ٣٩] «هو الرجل يعطي العطية ويهدي الهدية ليثاب أفضل من ذلك، ليس فيه أجر ولا وزر».

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٧.

وقد توفي طاوس ـ رضي الله عنه ـ يوم السابع من ذي الحجة سنة ١٠٦هـ، ووافته منيته وهو يحجُّ بيت الله الحرام، وصلى عليه هشام بن عبد الملك وهو خليفة.

٥ ـ عطاء بن أبي رباح:

هو: عطاء بن أبي رباح، وأبو رباح هو: أسلم بن صفوان، مولى آل أبي ميسرة بن أبي حُنَيْم الفهريّ[١].

سيد التابعين علماً وعملاً وإتقاناً في زمانه بمكة[٢].

قال ابن سعد[٣]: سمعت بعض أهل العلم يقول: كان عطاء أسود، أَعْوَرَ، أَفْطَسَ، أَشَلَّ، أعرج، ثم عمي بعد ذلك.

وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث.

قال أبو جعفر الباقر وغير واحد[٤]: ما بقي أحد في زمانه أعلم بالمناسك منه، وزاد بعضهم: وكان قد حَجَّ سبعين حجة، وعُمِّر مائة سنة، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر والضعف، ويفدي عن إفطاره.

روى عن عدد كثير من الصحابة؛ منهم: ابن عمر، وابن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة، وغيرهم.

وسمع من ابن عباس التفسير وغيره. وروى عنه من التابعين عدة؛ منهم: الزهري، وعمرو بن دينار، وقتادة، والأعمش، وغيرهم[٥].

مكانته في التفسير: كان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إليّ يا أهل مكة، وعندكم عطاء؟![٦].

وقال قتادة[٧]: كان أعلمُ التابعين أربعة: «كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام».

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٧، وفيات الأعيان ١/ ٣١٨، البداية والنهاية ٩/ ٣١٧، ٣١٨.
(٢) ميزان الاعتدال ٣/ ٧٠.
(٣) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٩٦، البداية والنهاية ٩/ ٣١٨.
(٤) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨.
(٥) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨.
(٦) تذكرة الحفاظ ١/ ٩١.
(٧) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٩.

لم يكن عطاء مكثراً من رواية التفسير عن ابن عباس فضلاً عن تفسيره هو، ولعلَّ إقلاله في التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأي[1].

قال عبد العزيز بن رفيع[2]: سئل عطاء عن مسألة؟ فقال: لا أدري، فقيل له: ألا تقولُ فيها برأيك؟ قال: إني أستحِيي من الله أن يدان في الأرض برأيي.

لكنه كان يدلي برأيه ـ أحياناً ـ في التفسير.

روى الطبراني ـ بسنده ـ عن يحيى بن ربيعة الصنعاني قال: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨] قال: كانوا يقرضون الدراهم، قيل: كانوا يقصون منها ويقطعونها[3].

وقيل لعطاء: إن ههنا قوماً يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] فما هذا الهدى الذي زادهم؟!. قلت: ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله، فقال: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥] فجعل ذلك ديناً[4].

وتوفي رضي الله عنه سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة[5].

وبعد:

فهذه هي مدرسة التفسير بمكة، تلك التي أسسها حبر الأمة عبد الله بن عباس، وهؤلاء أشهر شيوخها الذين تخرجوا فيها على يَدَي ابن عباس، وفي نهاية مطافنا معها نرصُد ما يلي:

* كان لهذه المدرسة دور ضخم في نشر التفسير، وقد هيأ لها هذا الدور: نبوغ شيوخها، بالإضافة إلى موطن المدرسة «مكة» حيث البيتُ الحرامُ الذي يأتيه الناس من كُلِّ فَجٍّ عميق.

* لم يكتف شيوخ هذه المدرسة بنشر التفسير في مكة، وإنما كان لهم دور بالغ الأهمية خارج مكة؛ فقد كان لسعيد بن جبير رحلة إلى الري، نشر فيها الكثير من العلم[6]، وكذلك كان لمجاهد رحلات خارج مكة، واستقر طاوس باليمن ينشر هناك علم

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١١٥.
(٢) التفسير والمفسرون ١/ ١١٥.
(٣)،(٤) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨، ٣١٩.
(٥) المصدر نفسه ٩/ ٣١٧.
(٦) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٤٥.

ابن عباس وتفسيره، وأما عكرمة فقد طاف البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً؛ إذ رحل إلى خراسان، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، والحرمين[1].

جزى الله هؤلاء الأعلام عن القرآن والمسلمين خير الجزاء.

مَدْرَسَةُ المَدِينَةِ
تَلاَمِيذُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ

قامت مدرسة المدينة في التفسير على الصحابي الجليل أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ فهو أستاذها وأشهر مفسريها.

وكان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها، فجلسوا إلى «أُبَيٍّ» يعلمهم كتاب الله وسنته، ومن أشهر هؤلاء:

١ ـ أبو العالية:

هو: زياد، وقيل: رُفَيْعُ بن مِهْرَان الرياحي، مولاهم[2].

مخضرم، أدرك الجاهلية وأسلَمَ بعد وفاة النبي ـ ﷺ ـ بسنتين.

روى عن: علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبي بن كعب، وغيرهم.

كان من ثقات التابعين، وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة.

كان يحفظ القرآن ويتقنه، قال: «قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين».

وقال: «قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات».

وقال فيه ابن أبي داود: «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية».

رويت عنه نسخة كبيرة في التفسير، رواها أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيٍّ، وهو إسناد صحيح.

توفي سنة تسعين من الهجرة على أرجح الأقوال.

٢ ـ محمد بن كعب القرظي:

هو: محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، المدني، أبو حمزة، أو أبو عبد الله، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة؛ منهم: علي، وابن مسعود، وابن عباس،

---

(١) راجع: وفيات الأعيان ١/ ٣١٩، معجم الأدباء ١٢/ ١٨١، البداية والنهاية ٩/ ٢٥٤.

(٢) راجع: تهذيب التهذيب ٣/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥، ومقدمة فتح الباري ص ٤٢٢، وانظر: التفسير والمفسرون ١/ ١١٦، ١١٧.

وغيرهم. وروي عن أبي بن كعب بالواسطة[1].

قال فيه ابن سعد[2]: كان ثقة، عالماً، كثير الحديث، ورعاً. وهو من رجال الكتب الستة.

قال فيه ابن عون[3]: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي.

نموذج من تفسيره[4]: قال في قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] اصبروا: على دينكم، وصابروا: لوعدكم الذي وعدتم، ورابطوا: عدوَّكُمُ الظاهر والباطن، واتقوا الله: فيما بيني وبينكم، لعلكم تفلحون: إذا لقيتموني.

توفي سنة مائة وثمان من الهجرة[5]، وقيل بعد ذلك.

٣ ـ زيد بن أسلم:

هو[6]: زيد بن أسلم العدوي، المدني، الفقيه، المفسر. أبو أسامة أو أبو عبد الله.

كان أبوه مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان زيد من كبار التابعين الذين عرفوا القول بالتفسير.

قال فيه الإمام أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي: «ثقة». وهو عند أصحاب الكتب الستة.

عرف بغزارة العلم. كان يقرأ القرآن برأيه ولا يتحرَّج من ذلك؛ إذ يرى جواز التفسير بالرأي.

وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة: ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة.

وتوفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة، وقيل غير ذلك.

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٦٨ وما بعدها.

(٢)، (٣) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ١١٧، والإسرائيليات والموضوعات ٩٨.

(٤) البداية والنهاية ٩/ ٢٦٨.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) تهذيب التهذيب ٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧، وراجع: التفسير والمفسرون ١/ ١١٨، ١١٩.

مَدْرَسَةُ الْعِرَاقِ

تَلاَمِيذُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ

قامت هذه المدرسة على عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وغيره، إلا أن ابن مسعود هو أشهر أساتذتها، أو هو أستاذها الأول؛ لطول باعه في هذا الميدان، بالإضافة إلى أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين ولى عَمَّار بن ياسر على الكوفة سَيَّرَ معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس إليه أهل الكوفة، وأخذوا عنه أَكْثَرَ من غيره.

ومن أهم سمات هذه المدرسة: شيوع طريقة الاستدلال فيها؛ نظراً لأن أهل العراق عرفوا بأنهم أهل الرأي، وقد وضع حجر الأساس لهذه الطريقة عبد الله بن مسعود[1].

ومن أشهر رجال هذه المدرسة:

١ ـ علقمة بن قيس:

هو: علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك، أبو شبل، النخعي، الكوفي.

كان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم. وكان يشبه بابن مسعود، وكان أعلم أصحابه بعلم ابن مسعود[2].

قال عثمان بن سعيد: «قلت لابن معين: علقمة أحب إليك أم عبيدة؟ فلم يُخَيّر، قال عثمان: كلاهما ثقة، وعلقمة أعلم بعبد الله».

وروى عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه.

قال فيه الإمام أحمد: «ثقة من أهل الخير». وهو عند أصحاب الكتب الستة.

مات سنة إحدى وستين، وقيل: سنة اثنتين وستين، عن تسعين سنة[3].

٢ ـ مسروق:

هو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني، الكوفي، العابد، أبو عائشة.

سأله عمر يوماً عن اسمه؟ فقال له: اسمي مسروقُ بْنُ الأجدع، فقال عمر: الأجدَعُ

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٠ (بتصرف وإيجاز).

(٢) تهذيب التهذيب ٧/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨، البداية والنهاية ٨/ ٢١٩.

(٣) راجع المصدرين السابقين.

شيطانٌ، أنت مسروق بن عبد الرحمن[1].

روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم.

وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، وأكثرهم أخذاً منه؛ قال علي بن المديني: ما أُقَدِّمُ على مسروق أحداً من أصحاب عبد الله، يعني: ابن مسعود.

وقال الشعبي: ما رأيت أطلب للعلم منه.

وقد وثقه علماء الجرح والتعديل؛ فقال ابن معين: ثقة، لا يسأل عن مثله، وقال ابن سعد: كان ثقة. وله أحاديث صالحة، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأَشْهَرِ[2].

٣ ـ عامر الشعبي:

هو: عامر بن شَرَاحِيلَ الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، أبو عمرو، قاضي الكوفة[3].

كان علاّمة أهل الكوفة، إماماً حافظاً، ذا فنون.

وقد أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم؛ ومنهم: عمر، وعلي، وابن مسعود، وإن لم يسمع منهم، وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم.

قال الشعبي: أدركت خمسمائة من الصحابة.

والشعبي ثقة؛ فهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال ابن حبان في «الثقات»: كان فقيهاً شاعراً.

وعن سليمان بن أبي مجلز قال: ما رأيت أحداً أفقه من الشعبي، لا سعيدَ بْنَ المسيِّب، ولا طاوساً، ولا عطاءً، ولا الحَسَنَ، ولا ابْنَ سيرين.

---

(١) تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ ـ ١١١، التفسير والمفسرون ١/١٢١، ١٢٢، الإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٢) تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ ـ ١١١، التفسير والمفسرون ١/١٢١، ١٢٢، الإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٣) تهذيب التهذيب ٥/٦٥ ـ ٦٩، البداية والنهاية ٩/٢٣٩ ـ ٢٤٠.

وقال ابن سيرين: قدمت الكوفة وللشعبي حَلْقَةٌ، وأصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يومئذٍ كثير[1].

ومع أنه قد أوتي هذا الحَظَّ الوافر من العلم، لم يَكُنْ جريئاً على كتاب الله حتَّىٰ يقول فيه برأيه؛ قال ابن عطية[2]: كان جلة من السلف؛ كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي يعظِّمون تفسيرالقرآن، ويتوقَّفون عنه؛ تورُّعاً، واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم.

توفي سنة أربع ومائة من الهجرة[3]، وقيل: سنة تسع ومائة.

٤ ـ الحسن البصري:

هو: الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد، مولى الأنصار، وأمه: خَيْرَةُ مولاة أم سلمة زوج النبي ـ ﷺ ـ رُبِّيَ في حجرها، وأرضعته بلبانها، فعادت عليه بركة النبوة[4].

ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب.

وهو أحد كبار التابعين الأجلاء علماً وعملاً وإخلاصاً، شهد له بالعلم خلق كثير.

قال أنس بن مالك: «سلوا الحسن؛ فإنه حفظ ونَسِينَا»، وقال سليمان التيمي: «الحسن شيخُ أهل البصرة»، وروى أبو عوانة عن قتادة أنه قال: «ما جالست فقيهاً قطُّ إلا رأيتُ فَضْلَ الحسن عليه».

وكان أبو جعفر الباقر يقولُ عنه: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»[5].

وقد التزم الحسن البصري بمنهجه السلفي في تفسير الآيات المتعلِّقة بالله وصفاته، ولم يمنعه هذا الالتزام من حرية العقل حين تعرَّض لغيرها؛ يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له، وهذه هي عقيدة السلف التي بنوها على ما تعلق بالآية من سبب لنزولها؛ فعن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ يخاصمونه في القَدَرِ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ

---

(١) راجع لهذه الأقوال: تهذيب التهذيب، البداية والنهاية، والتفسير والمفسرون.
(٢) مقدمة تفسير القرطبي ١/ ٣٤.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٩.
(٤) تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٣ ـ ٢٧٠، البداية والنهاية ٩/ ٢٨٠، الحسن البصري للإمام أبي الفرج بن الجوزي ـ هدية مجلة الأزهر / محرم ١٤٠٨هـ.
(٥) تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٣.

﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩][1].

وكان الحسن يعمل عقله وفكره في فهم القرآن وتفسيره؛ يقول في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: ٢٣]:

«إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: لابثين فيها أحقاباً، فوالله، ما هو إلا أنه إذا مَضَىٰ حقب، دخل آخر، ثم آخر... إلى الأبد؛ فليس للأحقاب عدة إلا الخلود»[2].

وتوفي رحمه الله سنة عشر ومائة من الهجرة، عن ثمان وثمانين سنة.

٥ ـ قتادة:

هو: قتادة بن دعامة السدوسي، الأكمه، أبو الخطاب، عربي الأصل، كان يسكن البصرة.

أحد علماء التابعين، والأئمة العاملين، روى عن: أنس بن مالك، وجماعة من التابعين؛ منهم: سعيد بن المسيِّب، وأبو العالية، وزرارة بن أوفى، وعطاء، ومجاهد، وابن سيرين، ومسروق، وأبو مجلز، وغيرهم[3].

وحدَّث عنه جماعاتٌ من الكبار؛ كالأعمش، وشعبة، والأوزاعي، وغيرهم.

وكان قويَّ الحافظة، واسع الاطلاع في الشعر العربي، بصيراً بأيام العرب.

كان قتادة على مبلغ عظيم من العلم؛ فضلاً عما اشتهر به من معرفته لتفسير كتاب الله تعالى؛ وقد شهد له بذلك كبار التابعين والعلماء.

قال فيه سعيد بن المسيب: «ما أتاني عراقيٌّ أحسن من قتادة».

وقد استخدم قتادة معرفته باللغة العربية في التفسير، وأعمل فكره في تفهم الآيات، بجانب روايته عن السلف.

وقد توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة، عن ست وخمسين سنة على المشهور، وقيل: سنة خمس عشرة ومائة[4].

وبعد:

فهذه هي مدارس التفسير المشهورة في عصر التابعين، الذين تَلَقَّوْا غالب أقوالهم في

---

(١) البغوي الفراء ٢٢١.

(٢) البغوي الفراء ٢٢٢.

(٣) وفيات الأعيان ٢/ ١٧٩، البداية والنهاية ٩/ ٣٢٦، تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١.

(٤) راجع: تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١ ـ ٣٥٦، البداية والنهاية ٩/ ٣٢٥، ٣٢٦.

التفسير عن الصحابة، وبعضهم استعان بأهل الكتاب، ثم اجتهدوا مستعينين على ذلك بما بلغوا من العلم ودقة الفهم، وقرب عهدهم من الرسول ـ ﷺ ـ والعرب الخلص، فلم تفسد سليقتهم.

وهناك مدارس أخرى غير هذه المدارس الثلاث، ولكنها لم ترق لشهرة هذه الثلاث.

ومن هذه: مدرسة مصر التي اشتهر من شيوخها: يزيد بن حبيب الأزدي، وأبو الخير مرثد بن عبد الله، وغيرهما.

ومدرسة اليمن التي أرسى دعائمها طاوس بن كيسان، وكان من أشهر شيوخها: وهب بن منبه الصنعاني.

وهكذا بذل هؤلاء التابعون جهداً ضخماً في حمل الأمانة عن الصحابة، ثم جاء تابعوا التابعين؛ ليكملوا المسيرة، وظَلَّتْ تتوارث حتى وصلَتْ إلينا، فجزى الله كُلَّ مَنْ أَسْهَمَ في هذا العلم خير الجزاء، ونفعنا الله بالقرآن وعلومه.

قِيمَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ التَّابِعِينَ

تفسير التابعي: إما أن يكون مأثوراً عن النبيﷺ، أو عن صحابته، أَوْ لاَ: فإن كان مأثوراً عن النبي يأخذ حكم تفسيرهﷺ، وكذلك إن كان مأثوراً عن الصحابة.

وإن لم يكن مأثوراً عن النبي، ولا عن الصحابة، فقد اختلف العلماء في الرجوع إليه، والأخذ بأقوال التابعين فيه:

* فقد نقل عن أبي حنيفة أنه قال[1]: ما جاء عن رسول الله ـ ﷺ ـ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيَّرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

* ونقلوا عن الإمام أحمد روايتين، إحداهما بالقبول، والأخرى بعدم القبول[2].

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعين؛ لأنهم لم يسمعوا من النبي ـ ﷺ ـ بخلاف تفسير الصحابة الذين سمعوا من النبي ـ ﷺ ـ وشاهدوا القرائن والأحوال.

وأكثر المفسِّرين على الأخذ بأقوال التابعين؛ لأنهم تلقوا على أيدي الصحابة؛ كما سبق أن ذكرنا.

---

(١) راجع: التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٢٩.

(٢) المصدر نفسه.

والرأي الذي نرجّحه ونميل إليه هو ما ذكره ابن تيمية، قال[1]:

«قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة؛ فكيف تكون حجة في التفسير؟! يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قولُ بعضهم حُجَّةً على بعض ولا عَلَىٰ مَنْ بعدهم، ويُرْجَعُ في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك».

سِمَاتُ التَّفْسِيرِ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ

اتسم التفسير في تلك المرحلة بعدة سمات؛ من أبرزها[2]:

* أنه اعتمد على التلقي والرواية، وغلب على التلقي والرواية طابع الاختصاص، فكان لكل بلد مدرسته وأستاذه، فمكة استاذها ابن عباس، والمدينة أستاذها أبي بن كعب، والعراق أستاذه ابن مسعود... وهكذا.

* دخول أهل الكتاب في الإسلام كان سبباً في تسلل الدخيل إلى علم التفسير، وقد تساهل التابعون في النقل عنهم ـ فيما لا يتعلق بالأحكام الشرعية ـ بدون تَحَرٍّ ونَقْدٍ، وأكثر من رُوِيَ عنه في ذلك من مسلمي أهل الكتاب:

عبد الله بن سَلاَم، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وغيرهم.

* كان بدهيًّا أن يختلف التابعون في التفسير؛ نظراً لتعدُّدهم وكثرتهم واختلاف مدارسهم التي تخرَّجوا فيها، ولكنه خلافٌ ليس بالكثير، إذا ما قيس بالعصور اللاحقة.

* كما ظهرَتْ نواة الخلاف المذهبيّ؛ إذْ ظهرَتْ بعض التفسيرات تَحْمِلُ في طياتها بذوراً لتلك المذاهب.

التَّفْسِيرُ فِي عَصْرِ التَّدْوِينِ

تبدأ هذه المرحلة في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي؛ إذ انتشر التدوين بصورة واسعة، وعني العرب «بتدوين كل ما يتصل بدينهم الحنيف، فقد تأسَّسَتْ في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنِيَتْ بتفسير الذكر الحكيم، ورواية الحديث النبوي، وتلقين

---

(١) مقدمة في أصول التفسير / ابن تيمية ٢٨ ـ ٢٩، الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٢٩.
(٢) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ١٣١، ١٣٢.

الناس الفقه وشئون التشريع، وكان كثير من المتعلّمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعونه. . .»[1].

تدوين التفسير: اُخْتُلِفَ في أول من ألّف تفسيراً «مكتوباً»، فبعضهم يذكر أن «عبد الملك بن جُرَيْج»[2] [ت ١٤٩هـ] هو أول من ألّف تفسيراً مكتوباً.

وذكر ابن النديم: أن أبا العباس ثعلباً قال: كان السبب في إملاءِ كتاب الفَرّاء في المعاني أن عمر بن بُكَيْرٍ كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل، ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن، فلا يحضُرُني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه، فَعَلْتَ، فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن. . . فقال الفراء لرجل: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسّرها، ثم نوفي الكتاب كله، فقرأ الرجل وفَسَّر الفراء، قال أبو العباس: «لم يعملْ أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه».

وبذلك يكون ابن النديم قد عد «الفَرّاء» أول من ألف تفسيراً للقرآن مدوّناً.

ولكن ابن حجر يذكر أن التفسير المدوّن كان قبل الفراء وقبل ابن جريج؛ إذ يقول[3]:

«وكان عبد الملك بن مروان [ت ٨٦هـ] سأل سعيد بن جبير [ت ٩٥هـ] أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار في الديوان، فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير».

ويبدو أنه من الصعب تحديدُ أَوّلِ من فسر القرآن تفسيراً مدوّناً على تتابع آياته وسوره كما في المُصْحَفِ.

أَقْسَامُ التَّفْسِيرِ

وظل الخَلَفُ يحمل رسالةَ السَّلَفِ جيلاً بعد جيل، حتى وصَلَتْ مسيرة التفسير إلى تابعي التابعين، وهنا تعدّدت اتجاهاتُ التفسير إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية، هي:

---

(١) تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ٤٥٢.

(٢) هو عبد الملك عبد العزيز بن جريج، أبو خالد، أو أبو الوليد، مولاهم، من علماء مكة ومحدثيها، ولد سنة ٨٠هـ، توفي سنة ١٤٩هـ، أول من صنف بالحجاز الكتب، نقل عنه ابن جرير في تفسيره. راجع طبقات ابن سعد.

(٣) تهذيب التهذيب ٧/ ١٩٨.

أولاً ـ الاتجاه الأثري (التفسير بالمأثور):

والمأثور: اسم مفعول من أَثَرْتُ الحديثَ أَثْراً: نقلته، والأَثَرُ اسمٌ منه، وحديث مأثور، أي: منقولٌ[1].

وعلى ذلك: فهو يشمل المنقول عن الله تبارك وتعالى ـ في القرآن الكريم ـ والمنقول عن النبي ﷺ، والمنقول عن الصحابة، والمنقول عن التابعين.

وجُلُّ الذين يكتبون عن تاريخ التفسير ويتحدَّثون عن الاتجاه الأثريِّ يَبْدَءُونَهُ بالطبري، فيقطعون بذلك اتصال سلسلة التطوُّر في الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول والقرن الثالث بإضاعة الحلقة من تلك السلسلة التي تمثل منهج التفسير في القرن الثاني؛ لأن تفسير ابن جرير الطبريِّ أُلِّفَ في أواخر القرن الثالث، وصاحبه توفي في أوائل القرن الرابع... وبالوقوف على هذه الحلقة ـ وهي إفريقية تونسية ـ يتضح كيف تطور فهم التفسير عما كان عليه في عهد ابن جُرَيْج، إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري، ويتضح لمن كان الطبري مَدِيناً له بذلك المنهج الأثريِّ النظري الذي دَرَجَ عليه في تفسيره العظيم.

ذلك التفسير هو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق، ويعد صاحبه مؤسِّس طريقة التفسير النقدي، أو الأثري النظري الذي صار بعده «ابن جرير الطبري» واشتهر بها.

ذلك هو تفسير «يحيى بن سَلاَّم» التميمي، البصري، المتوفى سنة ٢٠٠هـ، ويقع في ثلاث مجلدات ضخمة، وقد بناه على إيراد الأخبار مسندة، ثم تعقبها بالنقد والاختيار، وكان يبني اختياره على المعنى اللغوي والتخريج الإعرابي... وتوجد من هذا التفسير نسخة بتونس[2].

ويعد ابن جرير الطبري ربيب تلك الطريقة، طريقة يحيى بن سلام، وثمرة غرسه، وقد ذكر السيوطي عدداً من مفسري هذا الاتجاه الأثري منهم:

* يزيد بن هارون ت ١١٧ هـ.
* شعبة بن الحجاج ت ١٦٠ هـ.
* وكيع بن الجراح ت ١٩٧ هـ.
* سفيان بن عيينة ت ١٩٨ هـ، وغيرهم.

---

(١) المصباح المنير (أثر)، الإسرائيليات والموضوعات (أبو شهبة ص ٦٤).
(٢) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ٢٧.

«ابن جرير الطبري»[1]:

لكن التفسير حين انتهَىٰ إلى الطبري في أوائل القرن الثالث الهجري «كان نهراً مزبداً، ذا ركام ورواسب، قد انصب إلى بحرٍ خِضَمٍّ عُبَابٍ، فامتزج بمائه، وتشرَّب من عناصره، وصفا إليه من زبده، وتطهر لديه من ركامه ورواسبه»[2].

«وابن جرير» فقيه، عالم، تبحَّر في فنون شَتَّىٰ من العِلْم، فهو أحد المشاهير من رجال التاريخ، ويعد كتابه «تاريخ الأمم والملوك» فيه مرجع المراجع، وبه صار إمام المؤرِّخين غير منازع.

وقد شهد له بذلك كثير من الأعلام؛ يقول الخطيب البغدادي[3]:

«جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات كلِّها، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في الأحكام، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المَشْهُورُ في تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في التفسير لم يصنِّفْ أحدٌ مثله...».

لقد امتلك الطبري أدوات التفسير، فاستخدمها بمهارة وحذق، ومن هنا عُدَّ تفسيره ذا أولية بين كتب التفسير: أولية زمنية، وأولية من ناحية الفنية والصياغة، أما أوليته الزمنية: فلأنه أقدم كتاب في التفسير وَصَلَ إلينا، وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذَهَبَتْ بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شَيْءٌ منها، اللهم إلا ما وَصَلَ إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذي نَحْنُ بصدده[4].

وأما أوليته من ناحية الفَنِّ والصياغة: فذلك أمر يرجعُ إِلَىٰ ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلِّفه، حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته»[5].

طريقة الطبري في التفسير:

حين يفسِّر الطبري آية يَضَعُ لها عنواناً هكذا «القول في تأويل قوله جل ثناؤه...» ثم

---

(١) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الإمام أبو جعفر الطبري، ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ وقد جاوز الثمانين بخمس أو ست سنين.

(٢) التفسير ورجاله ص ٣٠.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ١٥٦.

(٤) هذا على اعتبار فقد تفسير «يحيى بن سلام» الذي أشرت إليه آنفاً، أما وقد ذكر الإمام الفاضل ابن عاشور أن نسخة من الكتاب موجودة في تونس، فإن تفسير الطبري لا يعد ذا أولية زمنية.

(٥) التفسير والمفسرون ١/ ٢٠٥.

يقول: يعني تعالى بذلك... ويستشهد على التفسير بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين، عارضاً المعاني الحقيقية والمجازية في استعمالات العرب، مستشهداً بالشعر العربيِّ على ما يثبت استعمال اللفظ في المعنَى الذي حمله عليه.

وقد يَعْرِضُ أقوال الصحابة والتابعين، إذا تعدَّدَتْ في الآية الواحدة، ثم لا يكتفي بمجرَّد العَرْضِ، وإنما يرجح رأيا على رأي بقوله[1]:

«وأولى الأقوال عندي بالصواب...»، أو: «وقال أبو جعفر: والصواب من القول في هذه الآية...»، أو: «وأولى التأويلات بالآية...»، ثم يؤيد رأيه بقوله: «وبمثل الذي قلنا قال أهل التأويل...»، أو بعرض حجج وأدلة، قائلاً: «وإنما رأينا أن ذلك أولى التأويلات بالآية؛ لأن...».

وقد عني ابن جرير بالقراءات عناية كبيرة، ولا غرو، فهو من علماء القراءات المشهورين، وله فيها مؤلَّفٌ، إلا أنه ضاع ضمن ما ضاع من التراث العربي القديم.

كما اهتم الطبري بالشعر القديم؛ ويستشهد به على الغريب، وهو في ذلك تابع لابن عباس.

كما كانت له عناية بالمذاهب النحوية البصرية والكوفية، يورد الرأي ويوجِّهه.

ويورد بعض الأحكام الفقهية في تفسيره؛ مختاراً لأحد الآراء، مؤيِّداً اختياره بالأدلَّة العلمية القيمة[2].

رحم الله الطبري وجزاه عن القرآن وتفسيره خير الجزاء.

ثانياً: الاتجاه اللغوي:

وقد بدا هذا الاتجاه واضحاً في أواخر القرن الثاني الهجريِّ، وأوائل القرن الثالث؛ إذْ نَشَأَ علم النحو، ونَضِجَتْ علوم اللغة على أيدي الرواد؛ أمثال: أبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وغيرهم.

وكان الغرض الأسمَىٰ من تأصيل هذه العلوم وتقعيدها خِدْمَةَ القرآن الكريم؛ صيانَةً له من اللحن، ولا سِيَّمَا بعد اتصال العرب بالعجم.

وقد أثرت هذه الدراساتُ في تفسير القرآن تأثيراً كبيراً؛ إذ اشتغل اللغويون أنفسهم بالقرآن ولغته، وكان من أشهر هؤلاء العلماء «أبو عُبَيْدَة مَعْمَرُ بن الْمُثَنَّى» المتوفَّىٰ سنة

---

(١) راجع: تفسير الطبري.

(٢) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ٢٠٢ ـ ٢١٨.

٢٠٨هـ أو ٢١٥هـ، وقد ألف كتابه «مجاز القرآن» سنة ١٨٨هـ[١]، ويعد هذا الكتاب أقدم مؤلَّف في معاني القرآن وَصَلَ إلينا.

وأبو عُبَيْدَة موسوعةٌ علميةٌ له مؤلَّفات في مجالات شتَّىٰ، وقد «أوتي لساناً صارماً جَلَبَ علَىٰ نفسه عداوات كثيرة، ثم تنفَّسَ به العمر قرابة قرن كامل زَامَلَ فيه أعلاماً كباراً، وجادل خصوماً كثاراً، وشهد تلاميذه ومَنْ في طبقتهم يجادلون عنه، ويجادلون فيه، فقرب وباعد، وواصل وقاطع، ولكن مخالفيه كانوا من الكثرة بحيث أرهقوه وضايقوه، حتى جاءه الأجل فلم ينهض لتشييع جنازته أَحَدٌ، وعُلِّلَ ذلك بما ترك من حَزَازَاتٍ أدبية»[٢].

ويحكي أبو عبيدة سبب تأليفه كتاب «مجاز القرآن» فيقول:

«أرسل إليَّ الفَضْلُ بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة، فَقَدِمْتُ إلى بغداد واستأذنت عليه، فأَذِنَ لي، فدخلْتُ عليه وهو في مجلس له طويل عريضٍ، فيه بساطٌ واحدٌ قد ملأه، وفي صدره فُرُشٌ عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسيٍّ، وهو جالس عليها فَسَلَّمْتُ عليه بالوزارة، فَرَدَّ وضَحِكَ إلَيَّ، واستدناني حتى جلستُ إليه على فرشة، ثم سألني وألطفني وباسطني، وقال: أنشدني فأنشدته، فَطَرِبَ وضحك وزاد نشاطه، ثم دخل رجلٌ في زِيِّ الكُتَّاب له هَيْئَةٌ، فأجلسه إلى جانبي، وقال له: أَتَعْرِفُ هذا؟ قال: لا، قال: هذا أبو عبيدة عَلاَّمَةُ أهل البصرة، أقدمناه؛ لنستفيدَ من علمه، فدعا له الرجل وقَرَّظَهُ لفعله هذا، وقال لي: إني كنتُ إليك مشتاقاً، وقد سألتُ عن مسألة، أفتأذَنُ لي أن أُعَرِّفَكَ إياها؟ فقلت: هاتِ، قال: قال الله عز وجل: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٥] وإنما يقع الوعد والإيعادُ بما عُرِفَ مثلُهُ، وهذا لم يُعْرَفْ؟! فقلت: إنما كلم الله تعالى العَرَبَ على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرىء القيس: [من الطويل]

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وهم لم يروا الغولَ قطُّ، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أَوْعَدُوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحْسَنَ السائل، وعزمْتُ مِنْ ذلك اليوم أن أضَعَ كتاباً في القرآن في سٹل هذا وأشباهه، وما يحتاج إليه من علمه؛ فلما رجعت إلى البصرة، عَمِلْتُ كتابي الذي سميته «المجاز»، وسألت عن الرجل السائل، فقيل لي: هو من كُتَّاب الوزيرِ وجلسائِهِ، وهو إبراهيمُ بْنُ إسماعيلَ الكاتِبُ»[٣].

---

(١) معجم الأدباء ١٩/ ١٥٨.

(٢) خطوات التفسير البياني د. رجب البيومي ص ٣٧، ٣٨، وراجع: معجم الأدباء ١٩/ ١٦٠.

(٣) معجم الأدباء ١٩/ ١٥٨.

وبعض العلماء ينكر هذه القصة؛ لأن أبا عبيدة لم يُشِرْ إليها في مقدمة كتابه. . .[1].

ومن الذين كتبوا عن اتجاهات التفسير مَنْ يُسلِكُ أبا عبيدة ـ من خلال كتابه هذا ـ في سلك الاتجاه البيانيِّ في التفسير، وأكثرهم يعده رائداً في الاتجاه اللغوي.

على أن أبا عُبَيْدَةَ لم «يَعْنِ بالمجازِ ما هو قسيمُ الحقيقة، وإنما عني بمجاز الآية: مَا يُعَبَّرُ به عن الآية»[2].

فقد يستعمل أبو عبيدة لفظ المجاز قاصداً به معنى اللفظ، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩] يقول: مجازه: «شددني إليك، ومنه قولهم: وَزَعَني الحِلْمُ عن السفاه، أي: منعني، ومنه: الوزعة الذين يدفعون الخصوم والناس عن القضاة والأمراء، ثم يستشهد بالبيت: [من الطويل]

عَلَىٰ حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَىٰ الصِّبَا ... فَقُلْتُ: أَلَمَّا تَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ[3]

وأما أبو زكريا الفراء المتوفَّىٰ سنة ٢٠٧هـ، فكان يستعين بتفسيرات السَّلَفِ مضيفاً له ما أَدَّىٰ إليه اجتهاده اللغوي، وكذا الزَّجَّاج المتوفى سنة ٣١١هـ[4].

لقد استلهم الفراء الحسن اللغوي محكِّماً ذوقه وعقله، كما راعى السِّيَاق العامَّ في الآية؛ ولذا نجده يفضل قراءة تُحَقِّقُ التجانس بين الكلمات المتجاورات على غيرها[5].

ثالثاً: الاتجاه البياني[6]:

وبذور هذا الاتجاه نجدها في تفسير ابن عباس المبثوث في ثنايا التفسير الأثريِّ، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦]، أن عمر ـ رضي الله عنه ـ سأل الناس عن هذه الآية؟ فما وجد أحداً يشفيه، حتى

---

(١) راجع خطوات التفسير البياني ص ٤٤، ٤٥ وقد ذكر الدكتور رجب البيومي أسباباً أخرى ومبررات لرفض هذه القصة.

(٢) فتاوى ابن تيمية كتاب الإيمان ص ٨٨.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٩٢، ٩٣.

(٤) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٨.

(٥) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٩، ٢٤٠ (بتصرف وإيجاز).

(٦) بعض المؤلفين في تاريخ التفسير يضعون اتجاهاً ثالثاً بدلاً من هذا الاتجاه يطلقون عليه «الاتجاه النقدي»، وبعضهم يسلك هذا الاتجاه ضمن الاتجاه الأثري. انظر: التفسير ورجاله: ابن عاشور ص ٢٦.

قال ابن عباس، وهو خَلْفَهُ: يا أمير المؤمنين، إني أَجِدُ في نفسي منها شيئاً، فَتَلَفَّتَ إليه، فقال: تحوَّلْ ههنا، لِمَ تَحقِّرُ نفسك؟! قال: هذا مثل ضربه الله ـ عزَّ وجل ـ فقال: أيودُّ أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخَيْرٍ حين فَنِيَ عمره، واقترب أجله، خَتَمَ ذلك بعمل مِنْ عمل أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرقَهُ أَحْوَجَ ما كان إليه[1].

وهو من باب الاستعارة التمثيلية، وقد ألمع إليه ابن عباس بقوله المُقَارب: هٰذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ... إلخ، وهل قال البلاغيون فيما بَعْدُ غَيْرَ ذلك؟![2].

ونهج تلاميذ ابن عباس نهجه، وكان أكثرهم نتاجاً في هذا الاتجاه «مجاهدٌ»[3].

وأما تأصيلُ هذا الاتجاه فقد كان على يد «أبي عُبَيْدَةَ» صاحب «مجاز القرآن»، ويعد صاحب الخطوة الأولَىٰ في هذا الاتجاه.

وفضل هذا الكتاب في الدراسات البلاغية أنه حِينَ تعرَّضَ للنصوص القرآنية، أَشَارَ إلَىٰ ما تدلُّ عليه من حقيقة أو مَثَلٍ أو تشبيهٍ أو كنايةٍ، وما يتضمَّن من ذكر أو حذف، أو تقديم أو تأخير، فوضع بذلك اللبنة الأولى في صرح الدراسات البلاغية للقرآن... وإذا كان عبد القاهر أظهرَ مَنْ نَادَىٰ من البلغاء بأن يوضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وهو ما سمي بقضية «النَّظْم»، فإن بذور قضيته هذه كانت تكمن في مجاز «أبي عبيدة» حيث رأَىٰ في زمنه السابق مَا رآه صاحب «الدلائل» في زمنه اللاحق، فكان بذلك الرائدَ الأوَّلَ لعلم المعاني عند من يلتمسون الجذور الضاربة في الأعماق[4].

وقد رتب «أبو عبيدة» كتابه وفق ترتيب السور القرآنية في المُصْحَفِ؛ ومِنْ هنا صار من اليسير أن يرجع الدارس إلى ما ذكر أبو عُبَيْدَةَ في توجيه الآيات الكريمة مِنْ مثل قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] حيث قال: إنها كناية وتشبيه[5].

ومن مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] حيث أتبع الآية بتحليل بياني، وعَدَّهَا من مجاز التمثيل، حين قال:

---

(١) تفسير ابن جرير ٣/ ٤٧.
(٢) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٢١ وفيه شواهد أخرى.
(٣) راجع الأمثلة التي ذكرها الدكتور رجب البيومي في خطوات التفسير البياني ص ٣٤ وما بعدها.
(٤) خطوات التفسير البياني ص ٤٦، ٤٧.
(٥) راجع: مجاز القرآن ١/ ٧٣.

«ومجاز الآية مجازُ التمثيل؛ لأن ما بَنَوْهُ على التقوى أَثْبَتُ أساساً من البناء الذي بَنَوْهُ على الكفر والنفاق، فهو على شفا جُرُفٍ، وهو ما يجرف من الأودية فلا يثبت البناء عليه[1].

تلك هي الخطوة الأولى خطاها أبو عبيدة في التفسير البياني للقرآن الكريم، وإنْ وُجِّهَتْ إليه كثيرٌ من النقود والمطاعن من علماء كبار؛ أمثال الفراء، والأصمعي، والطبري[2].

ثم تَلَتْ هذه الخطوةَ خطواتُ الجاحظِ وابْنِ قتيبة وغيرهما.

التفسير بغير المأثور

(بالرأي)

المراد بالرأي هنا الاجتهاد، فإن كان الاجتهاد موفقاً، أي: مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة ـ فالتفسير به محمود وَإلاَّ فمذموم، والأُمور التي يجب استناد الرأي إليها في التفسير نقلها السيوطي في الإتقان عَن الزركشي، فقال ما ملخصه: للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربع:

الأولى: النقل عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

الثانية: الأخذ بقول الصحابي، فقد قيل إنه في حكم المرفوع مطلقاً، وخَصَّهُ بعضُهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.

الثالثة: الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلاَّ ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب.

الرابعة: الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع، وهذا النوع الرابع هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس في قوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ».

فَمَن فسر القرآن برأيه، أي: باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ، معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله كان تفسيره سائغاً جائزاً خليقاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود، وَمَنْ حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها، كان تفسيره ساقطاً مرذولاً، خليقاً بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم.

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٦٩، وانظر: خطوات التفسير البياني ص ٥١، ٥٢.

(٢) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٥٨ وما بعدها.

فالتفسير بالرأي الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول ﷺ وأصحابه مما ينير السبيل للمفسر برأيه، وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها، وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة، حتى ينزل كلام الله على المعروف من تشريعه.

أما الأُمور التي يجب البعد عنها في التفسير بالرأي فمن أهمها التهجم على تبيين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة، ومنها: حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة، ومنها: الخوض فيما استأثر الله بعلمه، ومنها: القطع بأن مراد الله كذا من غير دليل، ومنها: السير مع الهوى والاستحسان.

وبعد هذا فاعلم أن أكثر السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ قد أجازوا تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد.

مناهج المفسرين بالرأي

يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأي أن يأخذ حذره، وأن يَتَذَرَّعَ بكل العلوم التي ذكرها الإمام الحبر البحر ذي البيان أبو حيان في مقدمة تفسيره هنا؛ ليكون قد أصاب المراد أو كاد.

أولاً: أن يطلب المعنى من القرآن، فإن لم يجده طلبه من السنة، لأنها شارحة للقرآن، فإن أعياه الطلب رجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله، وشاهدوه حين نزل، فوق ما امتازوا به من علم وعمل «وخير ما فسرته بالوارد».

ثانياً: إن لم يظفر بالمعنى في الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتي:

١ ـ البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق، ملاحظاً المعاني التي كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم.

٢ ـ إرداف ذلك بالكلام على التركيب من جهة الإعراب والبلاغة، على أن يتذوق ذلك بحاسته البيانية.

٣ ـ تقديم المعنى الحقيقي على المجازي؛ بحيث لا يصار إلى المجاز إلاَّ إذا تعذرت الحقيقة.

٤ ـ ملاحظة سبب النزول، فإن لسبب النزول مدخلاً كبيراً في بيان المعنى المراد؛ كما سبق في مبحث أسباب النزول.